مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 2 خ / 16 /03/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الجسد بين العقاب والتعذيب
قراءة في فلسفة ميشال فوكو

The flesh between punishment and torture is a reading of Michel Foucault

أشواق خنوس* Achouak Khanous achwak.khanous@gmail.com	فلسفة	مختبر الجماليات والفلسفة المعاصرة/ العلوم الإنسانية / جامعة الجزائر02/ الجزائر
د.عبد المالك عيادي Abdelmalek Ayadi Ayadiabdelmalek77@gmail.com	فلسفة	مختبر الجماليات والفلسفة المعاصرة/ العلوم الإنسانية / جامعة الجزائر02/ الجزائر

DOI : 10.46315/1714-010-002-011

الإرسال: 2020/04/08 **القبول**: 2020/09/21 **النشر**: 2021/03/16

ملخص:

يصف فوكو مجتمعات الحداثة بمجتمعات الضبط لأنها تشكل محورا أساسيا لكل تحليلات السلطة؛ هذه الخاصية تعبر عن مختلف تقنيات السلطة ، حيث المستهدف الوحيد هو الانسان، المؤسسات التي تسعى لحمايته هي الأخرى متحكم فيها من قبل القوانين الحكومية، فهذه الأخيرة تسعى الى تطبيع الأفراد ومراقبتهم، لكن بعد حاجة السلطة الى التنظيم لجأت الى ضبط المجتمع وترويض الأجساد عقابا وتأديبا بكل دقة وفاعلية من أجل تحويل الأفراد الى رعايا خاضعين وطيّعين. يبدو فوكو قد تجرأ في اختيار مواضيع تمس هامش الحضارة الغربية مايعد تحديا راهنا في اللامفكر فيه في تاريخ الفلسفة ما يعكس نمطية جديدة في التفكير واقعيا عبر الحفر نقديا.

كلمات مفتاحية: الجسد؛ المعرفة؛ السجن؛ العقاب؛ السلطة.

Abstract:

Foucault described modernist societies as control societies because they constitute a central axis of all power analyzes, as this characteristic expresses various power technologies where the human being is the institutions that seek to protect him are also controlled by government laws, the latter seek to normalize and control individuals, but after the authority's need for organization has resorted to controlling society and taming the bodies with punishment and discipline in a precise and effective manner, in order to convert individual into obedient and obedient subjects. The individual is subject to and its games so that its identity is determined.

Keywords : Body ;knowledge, Power; Punishment; Prison.

* - الباحث المُرسل: achwak.khanous@gmail.com

1. مقدمة:

شكل الجسد محور الجدل الفلسفي لكونه لم يحظ باهتمام كافي بعد أن اعتبرت النفس جوهر لا يفنى مقارنة بالجسد؛ هذه النظرة المقصية للجسد لم تدم طويلا مع مرور الزمن بات محل الأبحاث المعرفية والفلسفية لا لشيء إلا لأنه جوهر الذات الإنسانية، من بين الفلاسفة اللذين عالجوا إشكالية الجسد نجد الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو-1926) Michel Foucault (1984 وغيره كثر.

قدم فوكو مقاربة فلسفية بين الجسد وأركيولوجيا المعرفة-السلطة محللا الواقع التاريخي والراهن من زاوية سوسيوفلسفية نقدية، مستقرئا الجسد كحدث معرفي من خلال نظرته مابعد البنيوية مبينا حضور الجسد في حقل الألعاب السلطوية لأن هذا الأخير -الجسد- بات محل دراسة وتشريح معرفي علمي من قبل العقل الأداتي، هنا تتجلى إشكالية هذه الدراسة فكيف نظر فوكو إلى الجسد؟ وللإثراء هذه الإشكالية نطرح مجموعة من الأسئلة الفرعية المتمثلة في: كيف أصبح الجسد موضوعا للمعرفة؟ وما سبل ترويض الجسد؟ وما مآله في ظل تعدد آليات الضبط والمراقبة؟ تكمن أهمية البحث في توضيح مكانة الجسد في الطرح الفلسفي عموما ولدى ميشال فوكو خاصة لأن أعماله ماهي إلا تشريح لتاريخ الأجساد التي تستثمر بشتى الأشكال، نجد العديد من الفلاسفة تطرقوا لمسألة الجسد كموضوع فلسفي كميرلوبونتي وميشيلا مارزانو في مؤلفها فلسفة الجسد 2011 على غرار فيلسوف القوة -نيتشه- الذي شكل قطيعة بين الجسد والنفس والباحثة سمية بيدوح في كتابها فلسفة الجسد 2011.

2 فلسفة التعامل مع الجسد في الفلسفات القديمة

أ. التصور الكلاسيكي للجسد:

لم يعط أفلاطونPlaton(ق.م 374-427) أهمية بالغة للجسد بقدر ما كان اهتمامه موجّه للنفس،إذ دعا المجتمع اليوناني إلى عدم الاهتمام بالجسد كونه يعيق التفكير، فالجسد عند أفلاطون ليس سوى مجرد أعضاء متآلفة في ما بينها لا تشوبها لذة ولا ألم، وهو يميل إلى الملذات والمتع الحسية في حين النفس تسعى لتحقيق أعلى مراتب العلم والحكمة، ما جعل من النفس أكثر رفعة من الجسد، فالاختلاف القائم بينهما إن النفس لاتدرك إلا بالعقل وهي من طبيعة مغايرة تماما، وتعدّ جوهرا لا يفنى بالموت، في حين الجسد يتعرض للفناء ماجعل العلاقة بينها علاقة ظرفية، فغاية انفصال النفس عن الجسد هو الحفاظ على نقائها كون الجسد غريب عنها، فقيمة الجسد تكمن في النظام الفيزيائي الذي جعل من الجسد سجنا للروح. فقد كانت

نفوسنا موجودة وجودا سابقا وقبل أن تكون على الشكل الانساني منفصلة عن الجسد وممتلكة للفكر (موسى ،ح، 2009، ص 25).

الأمر نفسه يحدث مع ديكارت(1596-1650)Descartes مضيفا شرطا يتجسد في ابتعاد التفكير عن عالم المحسوسات وما تعلق بالجسد، فالتأمل الميتافيزيقي شك في وجود الحواس والجسد، فالجسد مجرد كيان مادي مثله مثل أي آلة، هذا ما جعل من الجسد محور الجدل الفلسفي، بيّن ديكارت أن الجسد مركز الرذيلة مقارنة بالنفس التي تمثل النقاء والصفاء، من هذه الثنائية يظهر التمايز بين النفس والجسد ما أكده ديكارت في قوله: "الروح والجسد هما حقا جواهر متباينة بعضها عن بعض" (ديكارت،ر، 1979، ص ص 38-39).

النفس مغايرة تماما للجسد على أساس أنها تمتاز بالديمومة والاستمرارية بينما الجسد يزول ويفنى، من هنا ينطلق نيتشه (1844-1900)Nietzsche مهدما كل التصورات بمطرقته مكذبا الفلسفات القديمة مقرا أن الكذب هو الذي ادعى الحقيقة إلى اللحظة، جاعلا من نفسه كاشف زيف هذه الحقيقة إذ يقول: "إنني أول من اكتشف الحقيقة لأنني استعطت أن أرى الكذب ككذب..." (نيتشه،ف، 1997، ص 154).

أعاد نيتشه الاعتبار للجسد، حيث أقر أنّ التركيبة الجوهرية للإنسان أساس الذات الإنسانية؛ وبهذا يظهر أنه لم يقص الجسد عن الإنسان بل يدافع عنه بشدة، فالذين اختزلوا الجسد قبلا هم غير قادرين على تحقيق مطامحه فذواتهم تنازلت عن الحياة لعجزها عن تحقيق مطامحها إذ يصرح نيتشه بقوله: "إني لا أسير على طريقكم أيها المستهزئون بالأجساد،لأنني لا أرى فيكم المعبر الذي يؤدي إلى مطلع الإنسان المتفوق" (نيتشه،ف، 1938، ص 27).

عمل على نيتشه قلب المعادلة التي كانت تضع النفس هي الجوهر، أصبح الأمر معه معكوسا جاعلا من الجسد جوهرا والنفس عارضا فما هي إلا جزء من الجسد ولا يمكن لها أن تتجاوزه، كونه يتحلى بإرادة القوة، وهذه القوة من شأنها أن تضع الإنسان في الأعلى، وتصنع معنى الحياة، كما أنه لم يدع الذين جعلوا من الجسد محل احتقار من تغيير نظرتهم إليه فذواتهم ما هي إلا ذوات تطمح إلى الزوال. أما في القرن العشرين تجلى الحضور النيتشوي في الفكر المعاصر لدى ميشال فوكو الذي جعل هو الآخر الجسد محور اهتمامه، إذ وجّه نقدا لاذعا للفلاسفة الذين أعلوا من قيمة الروح وأحطوا من شأن الجسد على رأسهم ديكارت، وهو ما دفع فوكو إلى معاينة إرهاصات القوة الجسدية في عصر الحداثة الغربية.

ب. الجسد كحدث في فلسفة ميشال فوكو:

ارتبطت فلسفة فوكو بمختلف تقنيات القمع والعنف الذي سعى بكل الطرق والوسائل الى موضعة الذات الإنسانية في حقل المعرفة ناهيك عن تلك الممارسات الاستبعادية ماجعله يحفر

بطريقة أركيولوجية Archéologie جينيالوجية Généalogie محللا الظواهر السلطوية ومختلف التجارب ك: المرض، الجنون، الجنس ومختلف الممارسات القهرية على الجسد، ففلسفة فوكو في جوهرها نضال ضد كل أشكال الهيمنة والاستغلال والخضوع ونضال ضد كل تمركز للفكر وللممارسة لتكون الغاية منه القبض على تلابيب الانسان (تريكي، 2009، ص ص 97-98).

يظهر من خلال كتابات فوكو خاصة "المراقبة والمعاقبة" Surveiller et punir لعبة السلطة ترتسم حول الأجساد فالهم الفوكوي يرتمي حول الأجساد الباحثة عن هويتها داخل الصخب السلطوي، لهذا سعى إلى تتبع محنة الجسد (ابن داود،ع، 2009، ص 257)، فلا وجود للإنسان دون وجود جسدي هذا ما بينه في كتابه "الكلمات والأشياء" Les mots et les choses بقوله: "أن العصر الحديث أصبح يولي اهتماما كبيرا للإنسان لأنه التفكير اللامتناهي انطلاقا من ذاته"(Foucault, M,1966, P92) ، فما يودّ توضيحه هو كيفية تمفصل الأجهزة السلطوية بشكل مباشر حول الجسد، ليس المقصود هو أن نمحو الجسد بل أن نظهره في التحليل، حيث لا يتابع البيولوجي والتاريخي بل يوجد ترابط بينهما خاضع لتعقد متزايد مع تطور التكنولوجيا الجسدية التي تجعل من الحياة هدفا لها(فوكو، م، 1990، ص 152).

معنى هذا أنه لا وجود مطلقا لإقصاء الجسد بل لابد من تقنيات تستثمر الوجود الجسدي عبر ما يسميه فوكو بالبيوسياسي (Biopolitique)، الذي عبّر عن الحتمية التي خضع لها المجتمع الغربي، فهي النظام الذي استولى على جسد الإنسان، فلابد أن يكون الجسد جسدا منتجا ولو بشتى وسائل العنف والسيطرة عليه بحيث لا يمكن ردع هذه القوة يقول فوكو: "وهو ما يسميه فوكو بتكنولوجيا السيطرة على الأجساد أو ما يمكن أن نسميه بتكنولوجيا السياسية للجسد (Foucault, M,1975, P 31).

لقد شكّل الضبط بالنسبة لفوكو التقنية السياسية للأجساد أو ما يمكن تسمية بالتوظيف السياسي للجسد؛ فكيف تم هذا التوظيف؟

شكل التوظيف البيوسياسي حلقة واسعة داخل المجتمع الغربي ولم يقتصر على مؤسسة دون أخرى إذ عُدّ الضبط تشريحا سياسيا للأجساد عبر توزيعها وتأطيرها من أجل تكوين جسد خاضع ومطيع لإنتاج جسد نافع، فالسلطة تخترق كل شيء صارت فن لصناعة الأجساد بعدة طرق وسبل؛ كتعذيبه ومطاردته ومحاصرته داخل المؤسسات التي أنجزت خصيصا له، فهو الحامل الوحيد للعبة السلطة.

الفعل سلطوي لا يكون كذلك إلا إذا كان فعلا على الجسد وفي الجسد فهو مسكونا به، إذ جعلت منه البرجوازية جسدا محروما من شتى القدرات، بعد ترويضه واستغلاله مستخدمة ما

تتوفر عليه من علوم فجعلت منه جسدا مستعبدا، فوضعت بعض الإجراءات العقابية بنوع من الاقتصاد السياسي للجسد (الكبسي، م، 2008، ص 83) .

رغم عدم استخدامها للأسلوب العنيف والقهري مستخدمة ما هو أقل قسوة وعنف من ذلك، فهي تحجز وتقوّم الجسد كي يظل محور تلك العلاقات السلطوية التي تخضعه للهيمنة (الكبسي،م، 2008، ص 83)، ومن خلال ظهور العلوم بدأ الاهتمام بالإنسان، في هذا العصر بالذات أصبح موضوعا للمعرفة، ما يكشف عن حضور السلطوي المعرفي داخل الخطابات المرتبطة بالجسد مبينة استثمارها له بكل السبل.

فاستلهام الجسد واستبعاده عن طريق الإقصاء والرفض إضافة الى تلك الممارسات من الحجز Ineternement والعزلLexclusion يشير الى فوبيا الجسد بسبب التفرقة الحاصلة بين النفس والجسد هذه التصورات القديمة مخلفات الفلسفات الكلاسيكية سواء كانت قيمية أو دينية، ما دفع فوكو الى تعرية الحقيقة وكشف اللاعقل موضحا إقصاء الجسد في أركيولوجيا الصمت ونقد العقل التاريخي، برزت الممارسة النقدية الفوكوية التي شكلت متنفسا لكل مكبوت ومسكوت عنه (الكبسي،م، 2008، ص 27).

شكل الجسد لدى فوكو قطب الرحى دلالة لكيفية العيش وأسلوب يختزل تعابير الحياة التي ترتبط بوظائف الأساسية من جهة باعتباره آلة أو محرك أو حركة ومن جهة أخرى باعتباره يمثل الوظائف العضوية للتوالد وللألم، حيث تقاس فعالية التقنيات الحديثة للسلطة بمدى قدرتها على تطويع الجسد وترويض مناطقه ووظائفه تلك هي الفكرة الرئيسية التي دفعت فوكو الى إفراد دور جوهري في نظريته السلطوية الى سلوك الجسد الإنساني في أكثر المواقف المعرفية والأخلاقية، ما يقدمه فوكو هو تاريخ الأجساد ومختلف التقنيات التي يتم بها استثماره بسبل مادية وحيوية (Foucault, M, 1976, P 200) ، لذا طورت الحداثة أساليب وتقنيات وإجراءات مراقبة الجسد وتطويعه وترويضه فهي لا تكتفي بمراقبة بل تتجاوز ذلك الى فرض وإنتاج ما تريد من سلوكات الأجساد (معزوز، 2009، ص ص 177-178).

3 مجتمع الضبط

أ. الجسد بين المنفى والتعذيب:

مثل الجنون خطرا كبيرا على المجتمع الغربي وهذا ما وضحه فوكو في قوله: "أن الجنون هو ظاهرة ظلت في حالة كمون لمدة قرنين تقريبا، وتشكل حالة رعب كذلك الذي أحدثه الجذام... كان الجنون مرتبطا بكل التجارب التي عرفها عصر النهضة" (فوكو،م، 1966، ص 27)، كان مهمشا ومهملا في الموروث الثقافي إلى أن جاء فوكو وقام بتسليط الضوء عليه، حيث يرى أنه

بصدد الكشف عن الجنون الحاصل في العقل الغربي، حيث عدّ الإنسان شبه إنسان وإن لم نقل أنه خارج دائرة الإنسانية.

بعد اختفاء مرض الجذام في العالم الغربي نتيجة الممارسات الطبية المشبوهة تم الفصل بين المريض والسوي، فأصبح المجنون منتفية عنه صفة الإنسان ونفي خارج المدينة، وذلك بإعطائه للباعة أو بوضعه في السفن والإبحار به حتى لا يتمكن من العودة مطلقا، هذا لما شكله الجنون من رعب داخل الوسط الاجتماعي، مما استدعى تطهير المجتمع من هذا الصنف من البشر بالنفي أو الطرد يقول فوكو: "السفن التي كانت تنقل حمولتها الجنونية من مدينة إلى أخرى وجدت حقا ولهذا، فإن الحمقى كانوا يعيشون حياة التيه، كانت المدن تطردهم من جنباتها ليلتحقوا بالبراري حيث يتيهون على وجوههم، هذا في الحالة التي يشحنون فيها مع بضائع تجار أو قافلة حجاج" (فوكو،م، 1966، ص 29).

بعد هذه الفترة فتحت مصحات عقلية مخصصة للمجانين وقد ساهم في إنشائها كل من الطبيب توك وبنيل؛ حيث عدّ أول من قام بهذه الإصلاحات وخصص لمجنون معاملة خاصة لم تكن معهودة من قبل وبعد تحريره من القيود والأغلال، وبهذا أصبح الطب والحجز ذو مقربة من بعضهما وهذا لسببين:

الأول: الاهتمام بحقوق في أعقاب الثورة الفرنسية، والثاني: هو التحول الحاصل في المستشفيات العقلية بعد أن كانت مؤسسات خاصة للعقاب، أصبحت مكانا للعلاج (هاشم، 1986، ص 23)، قد يكون العمل الذي قام به كل من بينيل وتوك إنجازا لكنه لم يعني شيئا في نظر فوكو صحيح أن المجنون أصبح يتمتع بنوع من الحرية النسبية مقارنة بما كان عليه وحرر من الأغلال داخل المصح، صحيح أنهما أطلقا صراحه جسديا لكنهما قيدا المجنون معنويا فهذا التقييد أكثر سوءا في نظر فوكو فرميا به في أحضان المصح وحوصر طبيا، وبذلك فقد المجنون خصوصيته ولم ينل حريته بل قيدت وحلّ مكانها العناية والمراقبة داخل أماكن عدت له.

وهنا تتجلى القطيعة الحاصلة بين عصر النهضة والعصر الكلاسيكي الذي ردّ الجنون إلى اللاعقل، وأسكته بينما في القرن التاسع عشر حظي الجنون بالعناية الطبية واعتبر مرضا عقليا (ليشته، ج، 2008، ص236)، فشك فوكو في تلك الصورة التي عامل بها الأطباء المجنون، وفي الإنسانية التي قوبل بها، فتحرير المجنون ما هو إلا أسطورة قام بها بينيل وتوك، فهو عمل اضطهادي، فالطبيب أصبح يمثل وجه السلطة التي تهدف إلى التخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم اجتماعيا، فالطب العقلي زاد من تعميق الهوة بأسلوب إنساني أكثر وأعمق فربط هذا التغيير بالرغبة في الهيمنة.

ب. مجتمعات الحداثة من العقاب الى الإصلاح:

السجن هو الآخر من القضايا التي اهتم بها فوكو وبحث فيها من خلال المنهج الأركيولوجيا والجينيالوجي إذ تعد هي الثانية بعد الجنون، وفي هذا الشأن خصص كتاب لهذه القضية وهو المراقبة والمعاقبة 1975 إذ يصرح: "السجن أقل حداثة مما يقال عندما يجعل منشأه مع القوانين الجديدة، إن الشكل –السجن- سبق في وجوده استخدامه المنهجي بموجب القوانين الجزائية، فقد تشكل خارج الجهاز القضائي عندما وضعت عبر الجسم الاجتماعي كله إجراءات من أجل تفريق الأفراد وتثبيتهم وتوزيعهم قضائيا وتصنيفهم واستخراج أقصى ما يمكن الوقت منهم وأقصى ما يمكن من القوى وتقويم أجسادهم وسلوكاتهم ضمن دائرة الرؤية التي لا ثغرة فيها وإحاطتهم بجهاز كامل من الرقابة والتسجيل والترقيم وإقامة معرفة حولهم" (فوكو،م، 1990، ص235).

سعى فوكو إلى استنطاق هذه الفئة وإعطائها حق الكلام والتعبير بكل حرية، فالدافع لتأسيس تلك المجموعة الإعلاء من صوت المسجون وإعطاءه حق الكلام، لكن قبل تأسيس المؤسسات العقابية كيف كان يعامل المجرم وما طبيعة العقاب الذي تلقاه؟. لو بحثنا عن طبيعة العقاب الذي يسلط على المعاقب قبل ظهور السجن نجد أشكال من العقاب والتعذيب حسب نوع الجريمة المرتكبة، كل جريمة ترتكب تعد إهانة لشخص الملك، لذا يقابل مرتكبها بقطع الأيدي أو قطع اللسان وثقبه وآخرون يحكم عليهم بالجر بالخيول وآخرون يحكم عليهم بالنفي أو بدفع غرامات مالية (فوكو، م، 1990، ص 69)، وهذه الطرق هي أخف أنواع العقاب.

قدم فوكو واقعة لتطبيق هذه العقوبات وهذا ما توضحه واقعة داميان الذي جذب بالأحصنة كان ذلك في الثاني من آذار سنة 1757 أمام باب الكنيسة حيث مورست عليه أشنع طرق التعذيب على إثر جريمـــة قتلـــه لأبـــيه، فعذب أمام باب الكنيسة في ساحة عامة وقطعت أطرافه وحرقت بالنار حتى تحولت إلى رماد يثرى في الهواء (فوكو، م، 1990، ص 47)، فالمجرم يعذب أمام الناس في الساحات العامة، وبتطبيق هذه الأشكال من العقاب، يسترجع الملك مكانته ومهابته؛ هذه الطرق المختلفة من أشكال العقاب ينتقم بها الملك لنفسه بإبراز قوته بأقسى الطرق وأبشعها، إذ أن طريقة التعذيب تعبر عن حقيقة الجرم المرتكب، وهي أيضا إعادة لسمو الملك (غرو، ف، 2008، ص 83).

فهذه الطريقة تولد العنف، وحشية هذا تم تأسيس المجتمع الانضباطي فأصبح السجن همه الوحيد إصلاح سلوك الفرد وفي هذا نفي لكل فنون العقاب، لكن في نظر فوكو السجن ما هو إلا نوعا جديدا من العقاب، وبعد القرن الثامن عشر ظهر نظام بانوبتيكان Panopticon لصاحبه

جيروم بنتام (Jeremy Bentham) الذي يسمح بالمراقبة غير المرئية لأكبر عدد من الناس بواسطة عدد صغير جدا (ليشته، ج، 2008، ص 238).

هذا النوع من السجون اقترحه بنتام معطيا له صفة هندسية، بحيث يقام برج في هذا الوسط والزنزانات من حوله تكون مكشوفة ومرئية وظاهرة للعيان من قبل الحراس والمراقبين في البرج، في حين أن المساجين لا يتيسر لهم رؤيتهم، فالسجناء يكونون تحت المراقبة دون أن يكون لهم علم بذلك، التحول من فظاعة التعذيب إلى العقاب كان بسبب طغيان النزعة الإنسانية التي حملتها عصور الأنوار، على إثرها استبدلت الطريقة البربرية والهمجية التي كانت مستخدمة في التعذيب إلى عقوبات. فأهداف المعرفة- السلطة واضحة بالمعرفة نحكم ونتحكم وبالتحكم نحن نعرف.

كل فعل سلطوي لا يكون كذلك إلا إذا كان فعلا على الجسد، إذ جعلت البرجوازية La bourgeoisie جسدا محروما من شتى القدرات، بعد ترويضه واستغلاله مستخدمة ما تتوفر عليه من علوم فجعلت منه جسدا مستعبدا، فوضعت بعض الإجراءات العقابية بنوع من الاقتصاد السياسي للجسد (الكبسي، م، 2008، ص 83).

لذلك يتم التحكم في الذات الإنسانية، وإخضاعها يعني إلغاء وجودها كما فإخضاع الآخرين يأتي نتيجة تدمير حريتهم، بينما يجب أن تكون الذات حرة بين ذوات حرة، لكن ذلك ليس هو واقع الحال بل الواقع هو أن الذات تدخل كقوة في صراع مع الآخرين (العريصة،م، 2016، ص 78)، فالكشف عن مختلف صيغ تبعثر الذات بإرجاعها إلى حيز خطاباتها التي تشغلها سواء كانت في مستوى اللغة والخطاب أو على المستوى المعرفي-السلطوي، هذا التبعثر الذي يثيره لا يعني اختزال الأجساد بقدر ما يعني تعدد مفاهيمها حسب وظيفتها والحيز الذي تشغله. أبحاث فوكو تدور حول الأجساد سواء كانت الأجساد الخاضعة أو الأجساد المقاومة، سواء تلك التي تحدث عنها في المراقبة والمعاقبة أو التي تحدث عنها في ثلاثيته تاريخ الجنسانية. يقول فوكو لمحاوريه الأمريكيين درافيوس ورابينوف: "غايتي طوال هذه السنين لم تكن تحليل الظاهرات السلطوية ولا إرساء قواعد هذا التحليل، لقد سعيت بالأحرى الى صنع تاريخ لمختلف طرائق تذويت الكائن البشري في ثقافتنا...ليست السلطة بل الذات هي التي تشكل الموضوع العام لأبحاثي" (هوبيرت و رابينو، 1990، ص 12).

يقع فوكو في مفارقة كبيرة بين إثبات ونفي الجسد من خلال تاريخيته التي يعرضها في كتاباته متحدثا عن الجسد من خلال الجنون- المجنون-، الأجساد المريض والمجرمة- السجن والعقاب- وأخيرا وليس آخرا في كتابه "الكلمات والأشياء" الذي يختمه بموقفه العدمي -موت الإنسان- ما يلحقه بالنزعة العدمية للذات المرتبطة بالتيار البنيوي بالدرجة الأولى.

إن ربْطُ الجسد بالخطاب الجنساني في أبحاث فوكو الجديدة يوضح عدم إقصائه للجسد وإنما حاول إعطاء مفهوما جديدا للأجساد ودورها، هذا ما ينقلها من الانفرادية إلى الجانب الاجتماعي نافيا قوة العقاب. مستحضرا القوة التي تمكّن الجسد أن يكون موضوعا للتأمل والتهذيب مبتعدا عن شفرات العقاب منظرا للكيفية التي تأسست بها الذوات في علاقتها مع مثل هذه الشِفْرات التي لا تعتمد دائما على العنف والمنع وما يترتب عليه من نتائج تندمج مع الذات (بيتلر، ج،2014، ص 56) .

هكذا انكشفت الممارسة النقدية لحدود الخطة التاريخية للأشياء ذات الأفق الابستيمولوجي والانطولوجي الذي تخرج فيه الذوات إلى الوجود، بهذه الطريقة تنخرط في جماليات الذات، إذ يكتب فوكو في محاضرة له عام 1978 ما النقد؟. النقد يمكن أن يضمن تحرير الذات من خضوعها في سياق ما نسميه بكلمة واحدة سياسة الحقيقة (بيتلر،ج، 2014، ص 58).

رغم عدم توظيف السلطة للعنف والقهر استخدمت ما هو أقل قسوة وعنف من ذلك، فهي تحجز وتقوّم الجسد كي يظل محور تلك العلاقات السلطوية الخاضعة للهيمنة في ظل ظهور علوم لم تكن معهودة من قبل، ومن خلال ظهور هذه العلوم بدأ الاهتمام بالإنسان في العصر الحديث، وفي هذا العصر بالذات أصبح موضوعا للمعرفة، ومتناولا على ساحة الفكر، لذا خصصت له مواضيع خاصة، وساهم في ظهور وتشكل ما يسمى بالعلوم الإنسانية، يقول فوكو: "أن تاريخ ميلاد الإنسان جد قريب: نهاية العصر الكلاسيكي وفجر العصر الحديث لذلك كان من الضروري تخصيص موقعه خاص للعلوم الإنسانية ضمن تشكيلة البنية المعرفية الضمنية" (فوكو، م، 1971، ص 47) .

الميلاد الجديد للعلوم الإنسانية نزع القداسة عن الإنسان بعد أن فقد الفكر في العصر الكلاسيكي قدرته على التمثل في خلق المفاهيم، لأن هذا العصر كان الإنسان معدوما، لم يكن أي أثر للعلوم الإنسانية، لكن يعود فوكو ليؤكد ظهور الإنسان على ساحة الفكر الحديث لكنه سرعان ما ينبأ بنهايته ضمن حلقات هذا التاريخ يقول فوكو: "إن الإنسان اختراع حديث العهد، صورة لا يتجاوز عمرها مئتي سنة، إنه مجرد انعطاف في معرفتنا وسيختفي عندما تتخذ المعرفة شكلا آخر جديدا" (Foucault, M, 1966, P 15) .

ما يعني أن فكرة الانسان حديثة النشأة ستختفي في القريب العاجل فهي في مرحلتها النهائية بمعنى فوكو سليل فلسفة القوة لنيتشه؛ فهذا الأخير عالج العديد من الإشكاليات الفلسفية من بينها فلسفة القوة، الانسان الأعلى وصولا الى موت الإله فقتل نيتشه للإله يعني قتل للإنسان القوي الذي تجاوز الانسان المهزوم لا لشيء إلا لان موت الإله وموت الانسان

متعلقان ببعضهما البعض فالأول سبب لوجود الثاني، لذا يقول فوكو في مؤلفه أقول وكتابات يقول: "نيتشه ملهمي فهو بمثابة الوحي بالنسبة لي" (Foucault, M, 1974, P 780).

لا ينكر فوكو أن الانسان يموت أكثر من مرة في ذات اللحظة لأنه في مواجهة دائمة ضد السلطة خاصة التي تلبس وشاح الإنسانية كما يكابد الصراعات والأزمات الحاصلة في الأزمنة الراهنة خاصة الأوبئة الفتاكة فهي إحدى دلالات الإبادة الجماعية، فلا ننسى أننا نعاني من ويلات التقنية، ليس من المبالغة القول بأننا نحن في ثورة علمية وتكنولوجية عارمة، فبعد أن كان الإنسان شغوفا بالأبحاث العلمية أصبح محل دراسة لها.

هذا ما أكد عليه هيدغر أن التقنية تزج بنا نحو الأفول ولا خلاص لنا منها، فاقتران اختفاء الإنسان بالمعرفة لأنها تجدد ذاتها في صورة جديدة بشكل أو بآخر، بمعنى أنها تتخذ أشكالا مختلفة وبهذا التغير ستجهز عليه بذاتها ويفقد هويته لأنه أصبح قابلا للتشريح من قبل الكثير من الفروع المعرفية والعلمية من مي

دان علم النفس والتحليل النفسي وعلم الأحياء تشترك مع بعضها البعض في رفاته، حيث يعتقد كل فرع من هذه الفروع العلمية أنها تحمل الحقيقة من خلال الجثة التي بين يديها.

4 خاتمة:

من خلال معالجتي لإشكالية الجسد بين التعذيب والعقاب في فلسفة ميشال فوكو وتحليل مختلف العناصر المتناولة تبلورت لدينا بعض النتائج أهمها:

إن فوكو من خلال منهجه الأركيولوجي وصل إلى أرشيف الحضارة الغربية كاشفا عن بنية العقل الغربي من خلال البحث والحفر. أما البحث الفوكوي في ماهية السلطة قد تجاوزا التصور التقليدي للسلطة، حيث جعلها سارية في كل مكان ومبثوثة في الجسد الاجتماعي من خلال تسليطه الضوء على المهمشين المقهورين.

إن المتتبع لكتابات فوكو في الفضاء الاجتماعي والسياسي يدرك بسهولة مدى تفاعله مع الأحداث التاريخية والمرتبطة بعصره؛ هذا الأمر يعد سابق من نوعه لأنه لم يتطرق إليه قبلا،لأن الذين قبله تفادوا الخوض في هذه المسألة، فالفلسفة لدى فوكو قائمة على الحفر في الحاضر وتشخيصه.

حاول فوكو الربط بين المعرفة والسلطة لدراسة الأبعاد السياسية والسلطوية لمختلف المعارف السائدة في الثقافة الغربية، فالمعرفة حسب فوكو تعطي للمتحصل عليها القوة، لتسمح له بالسيطرة على غيره من الناس مؤكدا أن العقل الغربي ليس عقلا معرفيا، بل غارقا في مختلف آليات السلطة وممارستها؛ بهذا الشكل فإن السلطة تسيطر على الواقع الاجتماعي بمختلف مستوياته وبنياته، لذا حلل فوكو العلاقة الجدلية بين كل من المعرفة والسلطة والوقوف على

الممارسات التي سلطت على المجنون والمسجون في هذه العلاقة الجدلية من خلال المزاوجة بين كل من الأركيولوجيا والجينيالوجيا، لذلك حسب ما قدمه فوكو من قراءة للجسد المقهور والمهزوم لابد من إعادة الاعتبار للجسد مكانته في الواقع الانساني المعاش متجاوزين لعبة السلطة، فلابد أن تكون نتاج الانسان ليس العكس.

إن مختلف المعاملات الاقتصائية التي مورست على الجسد جراء تلك المقاربات المعيارية من خلال الفصل بين السوي وغير السوي، العادي والبليد، والعاقل والمجنون...الخ حسب فوكو أن مكانة الإنسان الحديث بشكل عام ذات خصوصية معيارية وليست خاصية حقوقية كما تعودنا عليها في الفلسفات الكلاسيكية، فالمعيار أصبح إستراتيجية فعالة ضمن فنون الحكم فالمجتمعات الإنسانية تربطها الهيمنة أي علاقة القوة وإرادة الإخضاع، إذن الرهان رهان سياسي بالدرجة الأولى يستلزم التحكم في المعرفي والسياسي في الذوات لتحليلها ورسم حدود العلاقات وضبطها، ما يستحضر اللحظة المثارة في الفلسفة الفوكوية التي تنتهي به بمساءلة علاقات الذات التي تتطلب بدورها تشكلات حرة تتوافق مع ما هو ذاتي؛ فالكشف عن صيغ تبعثر الذات بإرجاعها لحيز خطاباتها التي تشغلها على مستوى اللغة والخطاب أو على المستوى المعرفي-السلطوي؛ بهذا الطرح يتدخل الاعتراف كتقنية –آلية- للمعرفة على المستوى القضائي أو الديني أو الفلسفي؛ لذا على المثقف الواعي المقاومة وتحليل الراهن نقدا والاهتمام بفلسفة الانسان.

****

5 المصادروالمراجع:

كتب = Books

Foucault(M).(1976). La volonté de savoir. Paris: Gallimard.

Foucault(M). (1966). Les mots et les choses . Paris : Gallimard.

Foucault(M) . (1975). Surveiller et punir. Paris : Gallimard.

Foucault(M). (1974). Vérité, pouvoir et soi, Dit écrits,03, Paris: Gallimard.

جوديث، بيتلر. (2014). ذات تصف نفسها (ط1). بيروت، لبنان : دار التنوير.

ليشته،جون. (2008). خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة. بيروت، لبنان: دار المنظمة العربية.

دريفوس هوبيرت، و بول رابينو. (1990). مسيرة فلسفية (ط1). بيروت، لبنان: مركز الانماء القومي.

ديكارت ،رينيه. (1979). مبادئ الفلسفة (ط1). القاهرة، مصر: دار الثقافة.

ابن داود، عبد النور. (2009). المدخل الفلسفي للحداثة، تحليلية نظام تمظهر العقل الغربي. الجزائر : دار العربية للعلوم ناشرون .

غرو، فريدريك. (2008). ميشال فوكو،بيروت،لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

نيتشه، فريدريك . (1938). هذا تكلم زرادتشت، الإسكندرية، (د.ط)، الاسكندرية، مصر: مطبعة جريدة البصرة.

نيتشه، فريدريك. (1997). هذا هو الإنسان. القاهرة، مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

الكبسي، محمد علي. (2008). ميشال فوكو. سورية : دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع.

العريصة، مصطفى. (2016). مدارات الذات في اللغة والسلطة والتنوير (ط 1). مراكش، المغرب: المطبعة والوراقة الوطنية.

حسين، موسى. (2009). فوكو الفرد والسلطة (ط 1). االرباط، المغرب: دار التنوير.

فوكو، ميشال. (1990،). المراقبة والمعاقبة ولادة السجن. بيروت، لبنان: مركز الانماء القومي.

فوكو، ميشال. (1966). تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي. الرباط، المغرب: المركز الثقافي العربي.

فوكو، ميشال. (1971). نظام الخطاب. الرباط، المغرب: دار التنوير.

مقالات المجلات =Journal & Magazine Articles

هاشم، صالح. (1986). فيلسوف القاعة الثامنة. مجلة الكرمل، 12،ص23 .

معزوز، عبد العالي. (2009). ميكروفيزياء السلطة. أوراق فلسفية،29،ص ص 177-178 .

تريكي، فتحي. (2009). نقد فلسفة المركز. أوراق فلسفية، 26، ص ص 97-98.